محاضرات مادة: مناهج المفسرين

أ.م.د. حسان علي عبد الفراجي

(المحاضرة الأولى)

تعريف مصطلح مناهج المفسرين

مناهج المفسرين، مركب إضافي مكّون من مضاف ومضاف إليه، وهي خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: "هذه مناهجُ المفسرين" ومناهج جمع منهج .

فما معنى هذه الكلمة ؟

منهج: مشتقةٌ من الكلمة الثلاثية (نَهْجٌ) قال ابن فارس في مقاييس اللغة :

"النَّهْجُ، الطَّرِيقُ، وَنَهَجَ لِي الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ، وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمِنْهَاجِ، وَالْمَنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمَنَاهِجُ".

وقال الراغب في المفردات:

"النَّهْجُ: الطريقُ الوَاضِحُ، ونَهَجَ الأمْرُ وأَنْهَجَ: وَضَحَ، ومَنْهَجُ الطَّرِيقِ ومِنْهَاجُهُ. قال تعالى:

{لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً}.

وخلاصة الأمر: أنَّ مادة (نهج) تقوم على: توضيح الأمر وبيانه، وتستعمل في الطريق الذي يكون واضحاً مستقيماً معروفاً بيّناً، بحيث تَمكنُ معرفتُه وتمييزه، ويسهلُ سلوكهُ والسيرُ فيه.

ويستعمل المنهج في استعمالين:

الأول: استعمالٌ ماديٌّ حسّيّ، حيث يُطلقُ على الطريقة الواضحة المستقيمة، التي يعرفها الإنسان، ويتمكّنُ من سلوكها والسيرِ عليها بقدميه.

والثاني: استعمالٌ معنوي نظري، حيث يُطلق على الخطة العلمية الموضوعية المحددة المرسومة الدقيقة، التي يتعرّفُ عليها الباحث أو الدارس، ويقفُ على قواعدها وأُسسها، ويلتزمُ بها، لتكون دراستُهُ علميةٌ منهجيةٌ موضوعيةٌ صحيحةٌ.

والاستعمالان الماديُّ والمعنويُّ لمصطلح المنهج متكاملان متوافقان، وليسا متناقضين، وهما يقومان على الوضوح والبيان.

ويهمُّنا في دراستنا الاستعمال الثاني لمصطلح المنهج، وهو الاستعمال النظريُّ المعنوي.

فمعنى (مناهج المفسرين) هو: الخطط العلمية الموضوعية المحددة التي التزم بها المفسرون في تفاسيرهم للقرآن الكريم، هذه الخطط الموضوعية لها قواعد وأسس منهجية مرسومة، ولها طرق وأساليب وتطبيقات ظهرت في تفاسيرهم.

(المحاضرة الثانية)

مناهج التفسير

لم يكن الصحابة -رضي الله عنهم- ولا الناس من بعدهم أيضًا على درجة واحدة في فهم القرآن الكريم، بل كانوا يتفاوتون في ذلك، فقد كان يشكل على بعضهم ما لا يشكل على بعضهم الآخر.

ويرجع ذلك إلى تفاوتهم: في معرفة اللغة، ومعرفة ما يحيط بنزول الآية من أحداث وملابسات كأسباب النزول، زد على ذلك تفاوتهم في القدرة العقلية شأن البشر كلهم.

ولو تساوت الأذهان في إدراك معاني القرآن؛ لبطل التنافس وخمدت الهمم لزوال ما يحملهما على القدح وإعمال الذهن والتفكير والتدبر، لكن الله جلت حكمته جعل ألفاظ القرآن تحتمل أحيانًا معاني كثيرة وأمر الناس بالتدبر والتفكر فيها وحث على ذلك فتنافس الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم في تفسيرها لينالوا الأجر العظيم والثواب الجزيل.

وسلك العلماء منهجين أساسيين لتحصيل معاني القرآن هما:

١- التفسير بالمأثور.

٢- التفسير بالرأي.

أولاً: التفسير بالمأثور وأهم المؤلفات فيه

- **تعريفه:**

هو بيان معنى الآية بما ورد في الكتاب، أو السنة، أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

فهو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول، ولا يجتهد في بيان معنى من غير دليل، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته.

- **مكانته:**

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها؛ لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الله تعالى، فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو المبين لكلام الله تعالى. وإما أن يكون بأقوال

الصحابة فهم الذين شاهدوا التنزيل وهم أهل اللسان وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول.

لكن ينبغي أن يعلم أن هذا مشروط بصحة السند عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة رضي الله عنهم.

وينبغي أن نتفطن إلى أن التفسير بالمأثور قد دخله الوضع وسرى فيه الدس والخرافات، ويرجع ذلك إلى أمور منها:

١. ما دسه أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود الذين تظاهروا بالإسلام لدس الأخبار المحرفة التي يجدونها في كتبهم.

٢. ما دسه أصحاب المذاهب الباطلة والنحل الزائفة الذين افتروا الأحاديث ونسبوها زورًا وبهتانًا إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو إلى أصحابه رضي الله عنهم.

٣. نقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة بغير إسناده مما أدى إلى اختلاط الصحيح بغير الصحيح والتباس الحق بالباطل.

لذا فإنه ينبغي التثبت عند الرواية للتفسير بالمأثور، وعلى هذا فإن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب السابقة، وهذا يجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا لتمحيصه أو التنبيه إلى ضلاله حتى لا يغتر به أحد.

(المحاضرة الثالثة)

مصادر التفسير بالمأثور:

وتسمى "طرق التفسير بالمأثور" وهي:

١. القرآن: تفسير القرآن بالقرآن أفضل طرق التفسير ومن أمثلته تفسير الكلمات في قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }[البقرة: ٣٧] بقوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣].

٢. السنة: قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤]. وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: ((السنة تفسر القرآن وتبينه)). ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة تفسير: " المغضوب عليهم": باليهود . "والضالين": بالنصارى ، وتفسير: " الخيط الأبيض والخيط الأسود" بأنه بياض النهار، وسواد الليل.

٣. أقوال الصحابة: وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ولا في السنة فعليك بتفسير الصحابة -رضي الله عنهم- فإنهم أعلم بذلك لما اختصوا به من مجالسة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع.

٤. أقوال التابعين: وقد اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى- في الرجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، فمنهم من عد أقوال التابعين مصدرًا من مصادر التفسير بالمأثور ، ومنهم من عدها كسائر أقوال العلماء.

• أسباب الاختلاف في التفسير بالمأثور:

وقد وقع الاختلاف بين السلف في التفسير بالمأثور، لكنه اختلاف يسير ومع قلته فإن أغلبه يرجع إلى اختلاف التنوع لا إلى اختلاف التضاد وهو أيسر أنواع الاختلاف.

ومن أسباب وقوع الاختلاف بين السلف في التفسير:

١. أن يكون في الآية أكثر من قراءة فيفسر كل منهم الآية على قراءة مخصوصة. ومثاله اختلافهم في معنى "سكِّرت" من قوله تعالى:

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} [الحجر: ١٤ ، ١٥]. فقد قال قتادة: من قرأ "سُكِّرت" مشددة يعني: سُدَّت، ومن قرأ "سُكِرَت" مخففة فإنه يعني: سُحرت.

٢. ومنها الاختلاف في الإعراب، فإن للإعراب أثره في تفسير الآية: ومثاله اختلافهم في قوله تعالى:

{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ٧]

فقد اختلفوا في {وَالرَّاسِخُونَ} فقيل: عطف نسق على لفظ الجلالة،

وقيل: مبتدأ والخبر في قوله تعالى: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}

فعلى القول الأول أن الراسخين يعلمون تأويله وعلى القول الثاني لا يعلمون، وسبب هذا الاختلاف الاختلاف في الإعراب.

٣. ومن أسباب الاختلاف احتمال اللفظ أكثر من معنى كالاشتراك اللغوي، فإن بعض الكلمات لها أكثر من معنى في اللغة كلفظ "قسورة" الذي يطلق على الرامي وعلى الأسد. ولفظ "النكاح" الذي يطلق على العقد وعلى الوطء. ولفظ "القرء" الذي يطلق على الحيض وعلى الطهر. وهناك أسباب أخرى غير ذلك.

• حكم التفسير بالمأثور:

قلنا: إن التفسير بالمأثور ينقسم إلى قسمين:

١- ما توافرت الأدلة على صحته. فهذا يجب قبوله، ولا يجوز العدول عنه.

٢- ما لم يصح فيجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا للتحذير منه.

(المحاضرة الرابعة)

أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور:

والمؤلفات في التفسير بالمأثور كثيرة ومن أهمها:

أولاً: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

مؤلفه:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ولد في "آمُل" في طبرستان سنة ٢٢٤هـ ، وتوفي في بغداد سنة ٣١٠)

كان عالمًا بالقراءات، وإمامًا في التفسير، بارعاً في الحديث، وشيخًا للمؤرخين، انفرد في الفقه بمذهب مستقل وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون.

وقال ابن خزيمة: "ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير".

وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب في القراءات و"تاريخ الرجال" في الصحابة والتابعين، و"لطيف القول" جمع في مذهبه الذي اختاره، "وتهذيب الآثار"، ومن أهم كتبه "تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم".

تفسيره:

أما تفسيره "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" فلم يُؤلَّف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسرون عالة على تفسيره في التفسير بالمأثور، ويتميز تفسيره بمزايا منها:

١- اعتماده على التفسير بالمأثور عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه والتابعين.

٢- التزامه بالإسناد في الرواية.

٣- عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح.

٤- ذكره لوجوه الإعراب.

٥- دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات.

وكان هذا التفسير مفقودًا إلى وقت قريب حيث عُثر على نسخة مخطوطة منه عند أحد أمراء حائل، وهو حمود بن عبيد الرشيد، وقد تم طبعه على هذه النسخة في ثلاثين جزءًا سنة ١٣١٩.

ثم قام الشيخان الفاضلان محمد وأحمد شاكر بتحقيق الكتاب والتعليق عليه ومراجعته وتخريج أحاديثه وصدر منه ستة عشر جزءًا إلى نهاية تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، ثم توقف العمل، نسأل الله أن يهيئ من عباده العلماء من يُتمُّه.

قال الخطيب: "وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله" وقال الذهبي: "وله كتاب في التفسير لم يصنف مثله"

وقال النووي: "أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري" وقال أبو حامد الإسفراييني: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا"

وقال ابن تيمية: "وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة. وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي في طلبه، وكانت له صلة وثيقة مميزة بابن تيمية ومناضلة عنه "ت٧٧٤هـ" رحمه الله تعالى.

ثانياً: تفسير القرآن العظيم

مؤلفه:

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي (ولد في بُصْرى في الشام سنة ٧٠٠) طلب العلم في صغره ورحل في طلبه، وكانت له صلة وثيقة مميزة بابن تيمية ومناضلة عنه "ت٧٧٤هـ" رحمه الله تعالى. ومن مؤلفاته: البداية والنهاية، والاجتهاد في طلب الجهاد، وجامع المسانيد العشرة، والكواكب الدراري، وغير ذلك.

تفسيره:

يعد تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور ويعتبر في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري.

قال السيوطي في ترجمة ابن كثير: "له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله". وقال الشوكاني: "هو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها".

وطريقته في التفسير أن يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة، موجزة ويجمع الآيات المناسبة لها، ويقارن بينها، وتفسيره أكثر كتب التفسير المعروفة سردًا للآيات المتناسبة في المعنى الواحد.

ثم يورد الأحاديث المرفوعة التي لها صلة بالآية، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف.

وينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالا أحيانًا وبالتفصيل حينًا آخر

وبالجملة يعد تفسيره -رحمه الله تعالى- من أفضل المؤلفات في التفسير، وقد طبع مرات كثيرة مع تفاسير أخرى، ومستقلا في أربعة مجلدات كبار، واختصره عدد كبير من العلماء، منهم الأستاذ أحمد شاكر، ومحمد نسيب الرفاعي وغيرهما.

التفسير بالرأي

تعريفه: هو تفسير القرآن بالاجتهاد.

أقسامه:

ينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود:

وهو التفسير المستمد من القرآن ومن سنة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وكان صاحبه عالمًا باللغة العربية وأساليبها، وبقواعد الشريعة وأصولها.

حكمه:

أجاز العلماء –رحمهم الله تعالى– هذا النوع من التفسير ولهم أدلة كثيرة على ذلك منها:

١. قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: ٢٤] وغيرها من الآيات التي تدعو إلى التدبر في القرآن.

٢. دعاء الرسول – صلى الله عليه وسلم– لابن عباس بقوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ولو كان التفسير مقصورًا على النقل ولا يجوز الاجتهاد فيه لما كان لابن عباس مزية على غيره.

٣. أن الصحابة – رضي الله عنه– اختلفوا في التفسير على وجوه، فدل على أنه من اجتهادهم.

وبهذا يظهر أن التفسير بالرأي المحمود جائز. والله أعلم.

الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

وهو التفسير بمجرد الرأي والهوى.

وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل الأهواء والبدع الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند ولا دليل، ففسروا آيات القرآن بما يوافق آراءهم ومعتقداتهم الزائفة وحملوها على ذلك بمجرد الرأي والهوى.

حكمه:

وهذا النوع من التفسير حرام لا يجوز، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام". والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١. قوله تعالى: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٦٩][الاعراف: ٣٣]. وقال سبحانه: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: ٣٦].

٢. حديث: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار" وحديث: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"

أهم المؤلفات في التفسير بالرأي:

والمؤلفات في التفسير بالرأي كثيرة منها:

أولاً: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

المؤلف:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي، الملقب بجار الله، ولد سنة ٤٦٧ في زمخشر من قرى خوارزم، بعد أن تلقى العلم رحل إلى مكة وألف فيها تفسيره الكشاف، ثم عاد إلى خوارزم، وتوفي فيها سنة ٥٣٨

وهو إمام من أئمة اللغة، لا يأنف من انتمائه إلى الاعتزال بل يجاهر به، ويدعو إليه، ومن مؤلفاته: "أساس البلاغة" و"الفائق في غريب الحديث" و"المفصل" في النحو..

تفسيره:

الزمخشري قليل الاستشهاد بالحديث، ويورد أحيانًا الأحاديث الموضوعة، خاصة في فضائل السور. وملأ تفسيره بعقائد المعتزلة والاستدلال لها وتأويل الآيات وَفْقَهَا ويدس ذلك دسًّا لا يدركه إلا حاذق حتى قال البلقيني: "استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش".

وهو شديد على أهل السنة والجماعة ويذكرهم بعبارات الاحتقار ويرميهم بالأوصاف المقذعة، ويمزج حديثه عنهم بالسخرية والاستهزاء.

ولهذه الأمور وغيرها : نبه كثير من العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره أو النقل منه، فقال الإمام الذهبي: "محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله، فكن حذرا من كشافه" وقال علي القاري: "وله دسائس خفيت على أكثر الناس فلهذا حرم بعض فقهائنا مطالعة تفسيره لما فيه من سوء تعبيره في تأويله وتعبيره".

وينبغي لمن أراد أن يقرأ فيه أن يرجع لكتاب "الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال" لابن المنير وهو مطبوع مع الكشاف وفيه كشف لاعتزالياته وضلالات.

ثانياً: مفاتيح الغيب

المؤلف:

أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين. (ولد في الرَّي سنة ٥٤٤ وتوفي في هَرَاة سنة ٦٠٦) جمع كثيرًا من العلوم فكان إمامًا في التفسير، وعلوم الكلام. وكان طبيباً حاذقاً، وقد ندم على الاشتغال بعلم الكلام ، وكان يقول:((ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ثم يبكي)). ومن مؤلفاته: مفاتيح الغيب، والمحصول في علم الأصول، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ومسائل الطب، وغير ذلك.

التفسير:

يعد تفسير "مفاتيح الغيب" أوسع التفاسير في علم الكلام فقد تأثر كثيراً بالعلوم العقلية، فتوسع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والمسائل الطبية، وملأ تفسيره بهذه العلوم حتى قيل عنه: "فيه كل شيء إلا التفسير" ومما يعاب عليه أنه يبسط دلائل أهل البدع والفرق المخالفة لأهل السنة بسطاً لا مزيد عليه ثم يرد عليها رداً غاية في الوَهَاء. ولم يتم الرازي تفسيره هذا، بل قيل: إنه بلغ في التفسير إلى سورة الأنبياء، ثم جاء تلميذه الخُوَيّي فشرع في تكملته ولم يتمه، وأتمه نجم الدين القَمولي، وقيل: إن الخويي أكمله، وكتب القمولي تكلمة أخرى غيرها، ولا يكاد القارئ يلحظ تفاوتاً بين أساليبهم. وقد طبع هذا التفسير في ١٦ مجلداً كبيراً.

(المحاضرة السابعة)

ثالثاً: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

المؤلف:

هو عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي ولد في عنيزة في القصيم سنة ١٣٠٧ توفي والده وهو صبي فكفلته زوجة أبيه وأدخلته مدرسة تحفيظ القرآن، فحفظه في الرابعة عشرة من عمره، واشتغل في طلب العلم فقرأ الكتب، وحفظ المتون ثم تصدى للتعليم ونشر العلم حتى ذاع صيته. ومن مؤلفاته، "تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن" وهو خلاصة لهذا التفسير و"القواعد الحسان لتفسير القرآن" و"التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة" و"الفواكه الشهية في الخطب المنبرية".. وغير ذلك. توفي رحمه الله تعالى في عنيزة سنة ١٣٧٦.

التفسير:

يقع هذا التفسير في سبعة مجلدات ثم طبع في مجلد واحد، ومع هذا فهو تفسير يميل إلى الإيجاز مع وضوح المعنى، ويعتمد المعنى الإجمالي للآيات حيث يورد مجموعة من الآيات، ثم يفسرها آية آية، وقد يتحدث عنها إجمالاً ثم تفصيلا موجزاً. ويعرض عن الإسرائليات، ويستطرد أحياناً في ذكر فوائد الآيات وما تدل عليه من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

رابعاً: في ظلال القرآن

المؤلف:

هو سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم ولد سنة ١٩٠٦م تخرج في كلية دار العلوم سنة ١٩٣٣م فزاول مهنة التدريس سنوات، ثم موظفًا في وزارة المعارف، ثم أوفد إلى أمريكا للاطلاع على مناهج التعليم فيها لتطبيقها في مصر، وكان القصد من إيفاده التخلص من نشاطه في الدعوة، وعاد من أمريكا وقد زاد حماسه ونشاطه للدعوة، حيث انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين وكان يردد "لقد ولدت عام ١٩٥١م" وهو عام انضمامه إليهم.

وحين وقع الصدام بين الإخوان وقادة ثورة يوليو في مصر كان سيد في مقدمة المعتقلين، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا ألف خلالها في السجن تفسيره "في ظلال القرآن" وكان هذا التفسير من أسباب خروجه من السجن حيث قرأه الرئيس العراقي عبد السلام عارف فتوسط عند جمال عبد الناصر لإخراجه بطلب من علماء العراق، وأفرج عنه سنة ١٩٦٤م فواصل مسيرة الدعوة فأعيد إلى السجن وصدر ضده حكم بالإعدام ونفذ الحكم سنة ١٩٦٦م رغم نداءات العالم الإسلامي واحتجاجاتهم، وقد طلب من سيد أن يكتب اعتذارا إلى جمال عبد الناصر ووعدوه بالعفو إن فعل فرفض وقال: "إن أصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً يقر به حكم

طاغية". وقال حين طلب منه الاعتذار: "لن أعتذر عن العمل مع الله" وقال: لماذا أسترحم؟ إن سُجنت بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل".

وله مؤلفات كثيرة منها: "معالم في الطريق" وهو من أهم كتبه ومن أسباب إعدامه، ومنها "التصوير الفني في القرآن" و"مشاهد القيامة في القرآن" و"المستقبل لهذا الدين".. وغير ذلك.

التفسير:

والكتاب وصف أدبي متميز للحياة كما يرسمها القرآن الكريم، وهو منهج لم يسبق إليه سيد من قبل، فمنهج التذوق الأدبي للقرآن الكريم، والتفاعل مع المجتمع الذي ترسمه الآيات، ومطابقته مع المجتمع الحاضر للخروج بمعالم التصحيح ورسم مسار الدعوة والعودة إلى الله، ثم دراسة الإيقاع الصوتي والجرس اللفظي للكلمات القرآنية، ودراسة التراكيب؛ منهج لم يسبق له مثيل في علم التفسير. أما طريقته في ذلك فخلاصتها أنه يقدم لكل سورة بمقدمة يبين فيها موضوع السورة ومحورها، وأهم سماتها، ثم يعرض لمقاطعها ويربط بينها ببيان المناسبة وهكذا.. مع الإعراض عن المباحث اللغوية والنحوية وذكر الخلافات الفقهية وتاركا الخوض فيما أبهمه القرآن مهملا للإسرائيليات. وطبع التفسير مرات عديدة آخرها وأشهرها في ستة مجلدات كبار.

(المحاضرة الثامنة)

مراحل التفسير:

التفسير في عهد الرسالة

التفسير في عهد الصحابة

التفسير في عهد التابعين

التفسير في عهد تابعي التابعين

أولاً: التفسير في عهد الرسالة

جاء تدوين العلوم الإسلامية متأخراً بضع عشرات من السنين عن عصر النبوة المبارك، لكن نشأة تلك العلوم كان مرتبطاً بتلك الحقبة، وكان التفسير مرتبطاً بتلاوة القرآن الكريم، لأن التلاوة، مع كونها عبادة، ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة لتفهم معاني كلام الله تعالى، حتى تتحقق ثمرة التلاوة، وهي الاهتداء إلى الدين القويم، وقد حث القرآن على تدبر معاني الآيات، قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[ص: ٢٩] وحذّر من الغفلة عند التلاوة بقوله: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد:٢٤] والتدبّر معناه: التفكر ، مشتق من قولهم: دبّر الأمر وتدبره: أي نظر في عاقبته وما يؤول إليه.

وكان تعليم رسول اللهﷺ القرآن لأصحابه يقتضي تفهم معانيه، كما كانت قراءة الصحابة القرآن تقتضي الوقوف على معانيه، يدل على ذلك قول أبي عبد الرحمن السلمي: ((حدثني الذين كانوا يقرءوننا: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، أن رسول الله ﷺكان يقرئهم العشر، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً)) والعمل يقتضي الفهم ومعرفة المعاني.

ومن تمام تعليم رسول الله ﷺ القرآن للناس بيان معانيه ومعرفة أحكامه، قال الله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤] .

ومن ثمّ ((فإن سنّة رسول الله ﷺ تبيّن القرآن، وتدل عليه، وتعبّر عنه)). سواء أكان ذلك البيان قولياً أم عملياً.

واختلف الدارسون في مقدار التفسير الذي بيّنه النبي ﷺ للصحابة، فمنهم من قال: إنه فسّر عدداً من الآيات ، ومنهم من قال: إنه بيّن للصحابة معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه .

ويمكن أن يكون الاختلاف في هذه القضية لفظياً، لأن القرآن الكريم أنزل بلغة العرب، وكان لسان المخاطبين به من الصحابة عربياً، فلم يحتاجوا إلى السؤال عن معاني كثير من آيات القرآن، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: ((إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ... فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبيﷺ أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه)).

وما قاله أبو عبيدة لا يعني أن الصحابة لم يسألوا رسول الله ﷺ عن معنى شيء من القرآن، أو أنه لم يبين لهم من معاني القرآن شيئاً، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ بيّن معاني الكثير من آيات القرآن، لكنه لم يبين معاني جميع آياته، لأن من القرآن ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ولا شك في أنه ﷺ لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه، مما يجري مجرى الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيه، وإنما فسّر لهم رسول الله ﷺ ما خفي عليهم معناه أو التبس المراد به، مما خصه الله بمعرفته وأطلعه عليه

ولم يدوّن شيء من التفسير في حياة رسول اللهﷺ لأن التدوين كان موجهاً إلى حفظ ألفاظ الوحي، وكان ﷺ قد نهى أولاً عن كتابة شيء من كلامه غير القرآن، خشية اختلاطه بالقرآن، فقال: ((لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، ومن كتب غير القرآن فليمحه)).

ونقل علماء الصحابة إلى التابعين ما سمعوه من التفسير النبوي للقرآن الكريم، وأخذ تابعو التابعين ومن جاء بعدهم تلك الروايات وأوردوها في كتب الحديث وكتب التفسير، وصارت مصدراً أساسياً في تفسير القرآن الكريم، لأنه ((مما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ... لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم)).

ومن أمثلة تلك الروايات:

١. أخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، وابن حبان في صحيحه، عن عدي بن حاتمرضي الله عنه، قال:

قال رسول اللهﷺ: ((إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين النصارى)).

٢. وأخرج الحاكم وصححه ، عن أنس ﷺ ، أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧] ما السبيل؟ قال: ((الزاد والراحلة)).

٣. وأخرج أحمد، والشيخان وغيرهم، عن ابن مسعود ﷺ، قال: لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢] ، شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ((إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] ، وإنما هو الشرك)).

٤. وأخرج مسلم وغيره، عن عقبة بن عامر ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال: ٦٠] ، ألا وإن القوة الرّمي)).

٥. وأخرج أحمد، والترمذي، والحاكم وصححه، والنسائي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرّان الذي ذكر الله في القرآن: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[المطففين: ١٤])).

والمتأمل في ما روي عن النبي ﷺ من بيان لمعاني آيات أو كلمات من القرآن: يجد أكثر تلك الروايات جاءت جواباً لمسائل سئل عنها رسول الله ﷺ ، أو كانت استدلالاً منه على معنى، فيكون ذلك الاستدلال بياناً لمعنى الآية، وجاء عدد منها تفسيراً نبوياً لكلمات أو آيات من القرآن توضيحاً لمعناها وتأكيداً له في نفوس الصحابة، رضي الله عنهم.

ويمكن للدارس أن يلحظ أن تفسير القرآن في عصر النبوة لم يكن شاملاً لكل القرآن الكريم، ولعل ذلك يرجع من جانب إلى فصاحة الصحابة التي مكنتهم من إدراك معاني كثير من آي القرآن من غير حاجة إلى سؤال النبي ﷺعنها، وإلى أن التطبيق العملي لأحكام

القرآن الذي كانوا يشاهدونه ويشاركون فيه قد أغناهم من جانب آخر عن السؤال عن معاني الآيات الكريمة.

ولعل هناك عاملا آخر أسهم في تقليل مسائل الصحابة عن معاني آي القرآن، هو قوة إيمانهم، وصفاء عقيدتهم، وعمق يقينهم، فكرهوا لذلك السؤال عما تشابه من آي القرآن مما استأثر الله بعلمه ، فلم يرو أنهم سألوا عنه رسول ﷺبل كانوا يقولون: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا، واتجهوا إلى الجانب العملي من القرآن والسنة النبوية فسألوا عما خفي عنهم منه واشتغلوا بتعلمه وروايته لمن جاء بعدهم من أجيال المسلمين، رضي الله عنهم أجمعين.

ثانياً: التفسير في عهد الصحابة

سنّ رسول الله ﷺ تعليم القرآن، وكان إذا دخل رجل في الإسلام دفعه إلى الصحابة وقال لهم: ((فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه وعلّموه القرآن)).

وأخذ الصحابة بذلك، بعد رسول الله ﷺ فكان الخلفاء الراشدون يحرصون على تعليم المسلمين القرآن والسنة، وروى الطبري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول:

((اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلّموا الناس دينهم وسنّة نبيهم)).

واشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة، كما قال السيوطي، هم: ((الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جدًا، وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم)).

وكان بعض الصحابة يتحرج من الإقدام على تفسير القرآن الكريم ، لكن آخرين منهم لاحظوا حاجة المسلمين إلى من يفهّمهم معاني كلام الله تعالى، فكانوا يفسرون لهم القرآن، وكان من الصحابة من ذهب إلى وجوب تقليب النظر في آيات القرآن واستنباط المعاني منها، فهذا أبو الدرداء يقول: ((لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً))، وهذا عبد الله بن مسعود يقول: ((من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن)).

ومن ينظر في التفاسير الكبيرة التي حرص مؤلفوها على نقل أقوال الصحابة في التفسير مثل الطبري وابن كثير والسيوطي يجد أسماء كبار الصحابة من مفسري القرآن تتردد في تفسير كل آية تقريباً، خاصة علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وكان ابن عباس أكثر الثلاثة، بل أكثر الصحابة تفسيراً للقرآن الكريم.

***

(المحاضرة التاسعة)

مراحل التفسير

ثالثاً: التفسير في عهد التابعين

اتسعت حركة التفسير في عصر التابعين لازدياد حاجة الناس إليه لفهم آيات القرآن الكريم، بعد أن ضعفت ملكة اللغة، وبعد أن دخل في الدين أمم متنوعة اللغات والثقافات، فنشأ في الأمصار الإسلامية جماعة من العلماء اشتغلوا بتفسير القرآن، معتمدين في ذلك على ما تلقوه عن الصحابة، وعلى ما وصل إليه علمهم في فهم آيات الكتاب الحكيم. ويبدو أن هذه الفترة شهدت أولى محاولات تدوين التفسير تدويناً منظماً، إذا صح أن جهود ابن عباس كانت تروى رواية، أو أنها لم تدون تدويناً منظماً.

واشتهر من علماء التابعين في كل مصر من الأمصار الإسلامية جماعة من المفسرين، خاصة في مكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة ، أما اهل الشام فإنهم في هذه الحقبة ((كانوا أهل غزو وجهاد، فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم)).

((وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب)).

ونميز من خلال هذا القول ثلاثة مراكز علمية ازدهر فيها التفسير في زمن التابعين، هي مكة، والمدينة، والكوفة، لكن أثر المفسرين الذين نشئوا في هذه المراكز لم يقتصر على المدن التي نشئوا فيها، وإنما امتد إلى الأمصار الأخرى، فلم يكن في تلك العصور حدود تمنع العلماء من التنقل في الأمصار الإسلامية، أو طلبة العلم من الرحلة إلى العلماء في مكان إقامتهم.

أما مكة فقد نشأت فيها مدرسة للتفسير، أرسى ابن عباس أسسها، وشادها تلامذته من بعده. وأشهر تلامذته :

أ- مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي (ت ١٠٤ هـ). قال عبد الله بن أبي مليكة: ((رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله)). ويروى عن مجاهد أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت؟ وحاز مجاهد سمعة طيبة في مجال التفسير، فنجد خصيف بن عبد الرحمن (ت ١٣٧ هـ) يقول: ((كان أعلمهم بالتفسير مجاهد)) وكان سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) يقول: ((إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به)). وينسب المؤرخون إلى مجاهد كتاباً في (التفسير) وقد طبع تفسير مجاهد من رواية عبد الله بن أبي نجيح (ت ١٣١ هـ) ولا يتناول هذا التفسير كل آيات القرآن، وإنما يقتصر على مواضع من كل سورة، على ترتيب المصحف. وفيه شرح لغوي للألفاظ، كما يبيّن أحيانا سبب نزول الآيات والقصة التي تتعلق بها

ب- ومن علماء التفسير الذين أخذوا عن ابن عباس، من طبقة التابعين، عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٤ هـ)، الذي قال: ((كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل، ويعلمني القرآن والسنن)). وأثمرت هذه الشدة في التعليم، فكان الشعبي يقول: ((ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة))، ويفخر

عكرمة بقوله: ((لقد فسّرت ما بين اللوحين))، لكنه لا ينكر فضل أستاذه عليه فيقول: «كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس»

ت- وممن أخذ التفسير عن ابن عباس أيضا عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥ هـ)، وطاوس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦ هـ)، وأبو الشعثاء جابر بن زيد البصري (ت ١٠٣ هـ)، ومنهم سعيد بن جبير الكوفي (ت ٩٥ هـ)

أما المدينة فإنه كان فيها من التابعين ممن اشتهر بالتفسير زيد بن أسلم المدني (ت ١٣٦ هـ)، الذي كانت له حلقة للعلم في مسجد النبيﷺ وقد قال عنه يعقوب بن شيبة: ثقة من أهل الفقه والعلم، عالم بتفسير القرآن، له كتاب في (التفسير) يرويه عنه ولده عبد الرحمن

وكان من تلامذة زيد الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ)، كما أخذ عنه التفسير ابنه عبد الرحمن (ت ١٨٢ هـ) الذي ألّف كتابا في (التفسير) وآخر في (الناسخ والمنسوخ)

أما في الكوفة فإن أشهر علمائها في التفسير زمن التابعين تلامذة عبد الله بن مسعود، يقول مسروق بن عبد الرحمن (ت ٦٣ هـ)، أحد تلامذة هذه المدرسة: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها، عامة النهار» ، ومن تلامذة هذه المدرسة أيضاً:

علقمة بن قيس (ت ٦١ هـ)، والأسود بن يزيد النخعي (ت ٦٤ هـ)، وعبيدة بن عمرو السلماني (ت ٧٣ هـ)، ومرة بن شراحيل الهمداني (ت ٧٦ هـ)

وكان في البصرة في عصر التابعين مفسرون، أخذ عدد منهم التفسير عن ابن عباس مثل: أبي الشعثاء جابر بن زيد (ت ١٠٣ هـ) الذي أخذ التفسير عن ابن عباس، ومنهم قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨ هـ)، والحسن البصري (ت ١١٠ هـ)، والربيع بن أنس البصري (ت ١٣٩ هـ) نزيل خراسان .

تلك هي المعالم البارزة لجهود التابعين في التفسير، وهي لا ترسم صورة كافية لتطور التفسير في هذه المرحلة التي تمثل البداية للتدوين المنظم لهذا العلم.

ولكن فقدان جل تفاسير هذه الفترة يستلزم تتبع الروايات المنقولة عن مفسري التابعين في التفاسير الكبيرة، مثل: تفسير الطبري، وابن كثير، والسيوطي، ويمكن من خلال

ذلك إعادة تشكيل تلك التفاسير ودراستها، لكن ذلك يخرج عن طبيعة هذه المحاضرات وهدفها.

رابعاً: التفسير في عهد تابعي التابعين

ازدادت مادة التفسير بعد عصر التابعين، وبدأت تظهر المصنفات التي جمع مؤلفوها أقوال الصحابة والتابعين في التفسير، ويعد الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) أول من صنف تفسير القرآن على طريقة الموطأ، تبعه الأئمة، فقلّ حافظ إلا وله تفسير مسند.

وتحدث السيوطي عن حركة التأليف في مجال التفسير بعد عصر التابعين، فقال بعد أن ذكر المفسرين من الصحابة والتابعين: ((ثم بعد هذه الطبقة ألّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبي إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وسنيد ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وآخرين.

وبعدهم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجة، وابن مردويه، وأبو الشيخ بن حيان، وابن المنذر، في آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك)) .

وتحدث أبو حيان الأندلسي عن تطور التأليف في التفسير بعد عصر التابعين وظهور الحاجة إلى التعمق في الكشف عن معاني القرآن، فقال: ((ثم تتابع الناس في التفسير وألفوا فيه التآليف. وكانت تآليف المتقدمين أكثرها إنما هي في شرح اللغة، ونقل سبب ونسخ وقصص، لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب وبلسان العرب، فلما فسد اللسان وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة ... احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التراكيب، وانتزاع المعاني، وإبراز النكت البيانية، حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها ...)).

وتطورت الحياة العلمية في الأمة الإسلامية تطوراً سريعاً، وتنوعت المعارف والثقافات، وبرزت المذاهب الفقهية، والاتجاهات الفكرية، وانعكس ذلك على تفسير القرآن الكريم، فتأثرت التفاسير بثقافة المفسر وتوجهاته الفكرية، فتنوعت تبعاً لذلك. وكان السيوطي ـ رحمه

الله . قد تحدث عن هذا التطور في التأليف في علم التفسير، فقال بعد أن ذكر التفاسير الجامعة لأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فقال:((ثم ألّف في التفسير خلائق! فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بترا، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل. ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانّا أن له أصلا، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، ومن يرجع إليهم في التفسير، حتى رأيت من حكى في تفسير قوله تعالى:{ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧] نحو عشرة أقوال. وتفسيرها: " باليهود والنصارى" هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافا بين المفسرين. ثم صنّف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه:

فالنحوي تراه ليس له همّ إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجّاج، والواحدي في «البسيط»، وأبي حيّان في «البحر» و «النهر».

والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والإخبار عمّن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة، كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين، كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية ، خصوصاً فخر الدين، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر فيه العجب من عدم مطابقة المورد للآية، قال أبو حيان في «البحر» : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً فيه أدنى مجال سارع إليه ...)).

(المحاضرة العاشرة)

التفاسير اللغوية: (معاني القرآن وإعرابه، للزجاج):

المؤلف:

الزجاج رجل يشهد الذين ترجموا له بأنه كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، جميل المذهب، رفعته همته من مهنة كان فيها يخرط الزجاج، إلى علم شامخ بين اللغويين والنحاة، ذلك أنه آنس من نفسه ميلا إلى النحو واشتهى التبحر فيه، فأخذه عن ثعلب رأس النحاة الكوفيين في بغداد في زمانه، ثم انتقل عنه إلى المبرد رأس النحاة البصريين في بغداد في زمانه، وقد خلّف الزجاج التآليف في تفسير القرآن، واللغة، والنحو، والعروض.

التفسير:

يقف هذا التفسير على رأس مجموعة من الكتب اتجهت بالتفسير اتجاهاً خاصاً، وهو الاهتمام بالناحية اللغوية والنحوية لكلمات القرآن وعباراته، ومحاولة فهم النص القرآني من خلال ذلك، وتسمى هذه التفاسير بكتب معاني القرآن، ويذكر الزركشي أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح قال: ((وحيث رأيت في كتب التفسير (قال أهل المعاني) فالمراد به مصنفو الكتب في معاني القرآن، كالزجاج ومن قبله)) .

ويقوم منهج الزجاج في كتابه (معاني القرآن وإعرابه) على ذكر الآية، ثم اختيار ألفاظ منها ليحللها تحليلا لغويا، فيذكر أصل الكلمة، والمعنى الذي تدل عليه، ويستشهد بما يؤيد رأيه من كلام العرب، وقد يستطرد فيشرح الأمثلة التي يستشهد بها، ثم يعود لإعراب الآية إن كان فيها ما يحتاج إلى إعراب.

ويقرر الزجاج أن هناك ترابطاً بين الإعراب والمعنى حيث قال: ((إنما نذكر مع الإعراب المعنى والتفسير لأن كتاب الله ينبغي أن يبيّن، ألا ترى أن الله يقول: چ ک گ گ چ فحضضنا على التدبر والنظر، ولكن لا ينبغي لأحد أن يتكلم إلا على مذهب أهل اللغة أو ما يوافق نقلة أهل العلم)).

ويعنى الزجاج في كتابه القراءات القرآنية، معتمداً في ذلك على كتاب أبي عبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٢٤ هـ) في القراءات، قال: ((وأكثر ما أرويه من القراءة في كتابنا هذا فهو عن أبي عبيد، مما رواه إسماعيل بن إسحاق، عن أبي عبد الرحمن، عن أبي عبيد)).

ويبدو أن هذا المنحى في تفسير القرآن الكريم أصابه بعد الزجاج تطور أخرجه من دائرة التفسير إلى ميدان النحو، فالزجاج كان قد عنون كتابه (معاني القرآن وإعرابه)، ثم جاء أبو جعفر النحاس (أحمد بن محمد ت ٣٣٨ هـ) بعد الزجاج وفصل بين معاني القرآن وإعراب القرآن، فألف كتابا في (معاني القرآن) وآخر في (إعراب القرآن)، فظهرت بعدئذ كتب إعراب القرآن التي تعنى بالناحية الإعرابية والوجوه النحوية، دون الاهتمام بالتفسير والمعنى، كما يظهر ذلك جليا في كتاب (مشكل إعراب القرآن) لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) وكتاب (البيان في غريب إعراب القرآن) لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، وكتاب (التبيان في إعراب القرآن) لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦ هـ).

ولا يعني ذلك أن اهتمام المفسرين بالناحية اللغوية والإعرابية لآيات القرآن قد اختفى من كتب التفسير، فالمعرفة اللغوية والنحوية من أدوات المفسر الضرورية، لكن هذه الناحية لم تعد سمة بارزة في تفاسير القرآن الكريم، وقد تبرز في بعض التفاسير، مثل تفسير (البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي (محمد ابن يوسف ت ٧٤٥ هـ) الذي اعتنى فيه بالناحية اللغوية والنحوية عناية كبيرة، لكنه لم يهمل النواحي الأخرى التي لها اتصال بالتفسير.

ومن نافلة القول هنا:

أن ابن النديم ذكر في كتابه (الفهرست) خمسة وعشرين كتاباً في معاني القرآن ومشكله ومجازه، من تأليف كبار علماء العربية، منهم: الكسائي، والأخفش، ويونس بن حبيب، والمبرد، وقطرب، وأبو عبيدة، والفراء، وابن كيسان، وابن الأنباري، والزجاج، وثعلب، وغيرهم .

وأشهر كتب معاني القرآن المعروفة في زماننا :

كتاب (معاني القرآن) لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ).

وكتاب (معاني القرآن) لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٢١١ هـ).

و (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ على خلاف).